قوة الضعفاء: نحو مواطنة حاضنة للتنوع في الشرق الأوسط

سعد سلوم[1]

في معبد زرداشتي صغير في "السليمانية" خضتُ في نقاشٍ متصلٍ مع المرشد الروحي للديانة الزرادشتية، وأبرز أتباعه، حول تاريخ الديانة الزرداشتية التي تحتلّ مكانة في تاريخ أنظمة العالم القديم الدينية الفلسفية. كان قد عاد توّاً من رحلة قصيرة للإشرف على تحول، أو على نحو أدقّ، "إستعادة مؤمنين جدد". قبل ذلك بأسابيع، بدأ مع أتباعه الاحتفال بالأعياد الزرادشتية، مثل عيد "الميهربان" الذي حلّ في 25 من كانون الأول، حيث أعلن أنه يطمح إلى إعادة بناء سلسلة المعابد الزرداشتية، أو على الأقل إنشاء معابد جديدة.

خاض هذا المقاتل الكردي لسنوات طويلة حرب العصابات ضمن الحركة القومية الكردية حاملاً السلاح ضد الدولة العراقية، وفي ذهنه حلم النزول من الجبل، مع دعوة نبيه القديم "زرادشت". وسرعان ما انتقل من سماء المقاومة ليبدأ على الأرض رحلة روحية توجت بعد أكثر من عقدين

---

[1] سعد سلوم: أستاذ العلوم السياسية المساعد، كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية، من مؤسسي المجلس العراقي لحوار الإديان 2013، والمركز الوطني لمواجهة خطابات الكراهية 2018، ومعهد دراسات التنوع الديني في بغداد 2019، ومعهد صحافة التنوع في العراق 2020. ويترأس مؤسسة مسارات MASARAT ، وهي مؤسسة متخصصة بالتنوع وحوار الإديان. له 18 مؤلفا عن شؤون التنوع المختلفة من أبرزها : الأقليات في العراق 2012، التنوع الخلاق 2013، السياسات والأثنيات في العراق منذ الحكم العثماني وحتى الوقت الراهن 2014، الوحدة في التنوع 2015، الإيزيديون في العراق 2016، حماية الاقليات الدينية والإثنية واللغوية في العراق 2017، وسائل الاعلام العراقية وقضايا التنوع الديني 2018، نهاية التنوع في العراق 2019. العودة الى سنجار 2020. حاز على جائزة ستيفانوس الدولية Stefanus Alliance International/ أوسلو 2018 عن جهوده في الدفاع عن قضايا حرية الدين المعتقد في العراق والشرق الأوسط، وجائزة البطريركية الكلدانية عن كتابه (المسيحيون في العراق : التاريخ الشامل والتحديات الراهنة)، وجائزة كامل شياع لثقافة التنوير عن مجمل أعماله الفكرية ونشاطاته المختلفة في نشر ثقافة التنوع والمواطنة الباعثة على التنوع.

بإعلان إنشاء المجلس الأعلى للزرداشتية، وإطلاق ما يسميه "ثورة ثقافية" لإحياء دين قديم عمره أكثر من 3500 عاماً.

تعود الزرداشتية للإنبعاث في شرق قلق ومتصدع، حيث كانت ديانة سائدة قبل أن يعرف الشرق الأوسط اديانه الثلاث التي انتشرت عالميا (اليهودية، المسيحية، الإسلام). وتثير عودتها مفارقة لا يمكن تجنبها، ففي الوقت الذي ينتزع فيه من هذا الشرق تنوعه الديني من المسيحيين والإيزيديين والمندائيين ويتحول إلى شرق مثلي الدين واللون والإثنية، فإن التحولات الطاردة للتنوع نفسها، سهلت انبعاث ديانة كَمُنَتْ في الظل أكثر من خمسة عشر قرناً.

ليس هذا حدثاً طارئاً ومنعزلاً، فحين تَتَبَّعْتُ عبر زيارة قرى الكاكائيين في جنوب شرق كركوك صعوداً إلى السليمانية، ثم انحرفت باتجاه الشرق إلى "حلبجة"، وعلى حدود العراق مع جمهورية إيران الإسلامية، كانت هناك صحوة ديانة أخرى التزم أتباعها الصمت، واعتنقوا السرّ لقرون، وأتيح لي متجولاً مع مرشدي في الرحلة "رمضان هيمرخان شاكرم" أن أشهد معجزة انبعاث روحانية قديمة.

كان "شاكرم" الذي ألّفَ كتاباً مدهشاً عن الكاكائية باللغة الكردية، يمسد شاربين كثيين يعدان علامة مميزة للكاكائيين، حتى ليبدو فعلاً أن العالم بالنسبة إليه يتأرجح على طرفي شاربه. جذبني بحديثه إلى عالم خيالي من الصفاء الخالص في قرية "هاورار" الكاكائية بالقرب من الحدود الايرانية. وفي طريق العودة مررنا بالقرب من ضريح أشار إليه بوصفه المكان الذي وصلت اليه جحافل المسلمين القادمين من الجزيرة العربية، "هنا حدث قتال وإبادة في خطوط صدع دينية، وقتل قائد الجيش المسلم"، كان ضريح القائد رمزاً لتاريخ فاصل، ينظر إليه الكاكائيون كـ"نصب الغزاة"، لكن بعضهم اعتاد زيارته بوصفه ضريحاً لشخصية مبجلة. أصبح هذا النصب/الضريح رمزاً لانقسام المجتمع الكاكائي بين فئتين: الأولى تتمسك بالإسلام والثانية تحاول بعث معتقداتها

الأصلية، وهذا الصراع الداخلي لجماعة دينية تقوم معتقداتها على الكتمان والسرية حدثٌ ثانٍ لا يمكن تجنبه في ضوء انبعاث أشكال التنوع القديمة بفعل الحرب والعنف وتفكك الدولة/الأمة.

في أقصى جنوب العراق، وضع زميلي الراحل "جلال ذياب"، أبرز زعماء الأفروعراقيين، صورتيْ "مارتن لوثر كنغ"، و"باراك أوباما" على حائط مدرسته لتعليم الفقراء في عشوائيات منطقة الزبير في البصرة في العام 2009، كانت الصورتان تشيران إلى صحوة هوية غير متوقعة في مناطق الأقلية السوداء في مدينة تعد عاصمة العراق الاقتصادية ومصدر ثروته النفطية. تنطوي مظاهر انبعاث التنوع على تحدٍّ أمام صورة بلد يتفكك ويتشظى، فقد كانت الأيقونات السود تتحدث عن عراق آخر "ممكن" يجري تخيله في نضال الناشطين المدنيين والمدافعين عن حقوق الإنسان، وبقوة إلهام هذه الأيقونات، استيقظ التاريخ الذي جرى إسكاته، وانبعث ما ضاع أو جرى نسيانه عمداً وسط ضجيج وسائل الإعلام وأخبار العنف الطائفي وعدم الاستقرار في البلاد، وهكذا بفعل الحرب على العراق وغزوه أنتجت مطالب ما كان بالإمكان تخيلها قبل العام 2003 بشكل عام، وقبل فوز الرئيس "باراك أوباما" في الانتخابات الرئاسية الأميركية بالذات.

هذه المشاهد الثلاث عن الزرادشتيين والكاكائيين والعراقيين من أصول أفريقية تعد علامات على دينامية موت وانبعاث التنوع في العراق في ضوء التحولات العنيفة التي يمر بها الشرق الأوسط بحيث ان قاموس المنطقة تهيمن عليه مصطلحات قاسية ومخيفة مثل : تدخل دولي، هجرة قسرية، تغيير ديموغرافي، حرب أهلية، تطهير عرقي، إبادة جماعية، جرائم حرب، جرائم ضد الإنسانية الخ.

من الأرمن الى الإيزيديين : مائة عام من الإبادة الجماعية

في غرب محافظة نينوى شمال العراق زرتُ "سنجار" صيف حزيران 2020 التقيتُ بشخصيات إيزيدية مختلفة، لا سيما من قرية "كوجو"، أخذني شابٌّ ناجٍ في جولة داخل المدرسة التي جرى تجميع سكان القرية من الإيزيديين فيها، قبل تصنيفهم وإبادتهم من قِبل مقاتلي "داعش". كان يشير

إلى صور عائلته بهدوء، وصورة أُختَيه اللتين قُتِلتَا، وكأنهما تنتميان إلى عالم آخر بعيد عن هذه القرية التي تحولت إلى متحف للموت. بعدها، قادني إلى حقول القتل الجماعي، وأطلعني على المقابر الجماعية التي جرى جمع الرفات المكدس فيها من قِبل فريق الأمم المتحدة، الذي أرسل إلى العاصمة بغداد لأغراض الفحص والتعرف إلى هويات الضحايا، في حين جُهِّزَت قبور للضحايا، ما تزال مفتوحة، وحمَل كلٌّ منها اسم شخص محدد، وذلك بانتظار دفن الجثث فيها بعد التعرف إليها عند نهاية فحص DNA.

أما المحظوظون من الإيزيديين الذين عَلِموا بتقدُّم رايات داعش السُّود باتجاههم، وأُتيحت لهم فرصة الهرب، فقد سلكوا الطريق نحو ملجأ الإيزيديين الوحيد (جبل سنجار). لقد رافقتُ صديقًا إيزيديًّا عبْر طريق إلى الجبل الذي سلكه الإيزيديون هربًا من آلة القتل، تاركين كل ما يملكونه وراءهم. كانت الصور المنشورة عن هذه المسيرة المتجهة إلى الجبال المنعزلة والجرداء، تذكِّرنا بصُوَر المُرحَّلين الأرمن في الدولة العثمانية قبل مائة عام، والذين واجهوا الموت والعطش في صحراء سوريا وبلاد ما بين النهرين. لقد جرى ترحيل الأرمن قبل مائة عام من هضبة الأناضول باتجاه الجنوب الصحراوي المنبسط، لكنَّ الإيزيديِّين هربوا باتجاه الشمال حيث سقفُ السماء العالية.

تطلعتُ إلى الجانب الآخر عبْر الحدود المحاذية لسوريا، حيث تربض مدن أخرى مدمَّرة على نحو يذكِّرنا بالمدن التي اندرست آثارها في الحرب العالمية الثانية، مثل: ستالينغراد وبرلين. كانت حلب في سوريا تشبه سنجار في العراق، خرابها دالٌّ على إبادة المدن، فضلًا عن سكانها. وقبل مائة عام جرى استقبال الأرمن (ضحايا الأمس) عبر هذه الحدود من قِبل الإيزيديين (ضحايا اليوم). وهناك ذكريات لا يمكن محوها عن هذا الفرار والاستقبال الجماعي، وما تزال مغارات في جبل سنجار تحتوي على عظام الإيزيديين المختلطة بعظام الأرمن الفارين إلى الجبال العالية.

الخيط الذي يربط إبادة الإيزيديين بإبادة الأرمن قبل أكثر من مائة عام يشير الى إطروحة الإستمرارية، إذ إن هذه ليست قصتنا وحدنا في الشرق الأوسط؛ فالنظام الدولي زاخر بجرائم مماثلة، والأوروبيون منذ القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر طهروا الأرض من الشعوب الأصلية في أستراليا وأميركا الشمالية. وفي العقد الأول من القرن العشرين، قامت ألمانيا القيصرية بارتكاب الإبادة الجماعية للهيريرو في جنوب غرب أفريقيا. الأنظمة الشمولية مثل النازية الهتلرية والشيوعية الستالينية وماو الصينية، كانت في طليعة الأنظمة الإبادية. بعد نهاية الحرب الباردة أطلت العِرقيات برأسها مع إبادات جديدة، لا سيما بعد فشل الدولة التي ترك غيابها لأمراء الطوائف ومقاولي الهويات، أن يتحولوا إلى زعامات مافيوية تستخدم التطهير العرقي وسائل لتحقيق أهدافها. وقد أثبتت الأحداث الأخيرة بعد اجتياح داعش لسوريا والعراق، وقبْلها في يوغوسلافيا في البوسنة والهرسك عام 1995، وكوسوفو عام 1999، ورواندا عام 1994، ودارفور عام 2003، كيف أن تهديد الإبادة الجماعية ما يزال قضية رئيسة في السياسة العالمية.

أن يكون أكثر من ستين مليون شخص ضحايا الإبادة الجماعية في القرن العشرين وحده، إضافة إلى الخسائر الأخيرة في البوسنة ورواندا، وبمعزل عن ضحايا دارفور وسوريا والعراق، فإن ذلك يستحق منا وقفة لمنع تكرار المأساة.

ثورة منسية في الشرق الأوسط

قبل أن يحيي الأرمن في الشرق الأوسط الذكرى المئوية للأبادة الجماعية، وقبل أحتفال البهائيين بالذكرى المئوية الثانية لولادة بهاء الله (و هو ما سأتحدّث عنه لاحقا في معرض استعراضي لمحنة هذه الأقلية الدينية في هذا الجزء من العالم)، أحتفل سكان الشرق الأوسط من ذوي الأصول الأفريقية بفوز الرئيس أوباما بالرئاسة الأميركية.

ومنذ فوز باراك أوباما برئاسة الولايات المتحدة 2008 وحتى مقتل جورج فلويد 2020، يبدو إن الوعي يتصاعد بحقوق ذوي البشرة السوداء في الشرق الأوسط، ويجري الإقرار بالتمييز الذي

يواجهونه في أكثر من بلد عربي أو مسلم. وبينما أثار مقتل جورج فلويد والاحتجاجات التي تلت ذلك في الولايات المتحدة نقاشات واسعة في الشرق الأوسط عن التمييز وعدم المساواة التي ما يزال يواجهها الأميركيون من أصول افريقية، فقد أستخدمها المناهضون للسياسات الأميركية للدلالة على فشل الولايات المتحدة كنموذج للتغيير الديمقراطي في الشرق الأوسط. لكن، سرعان ما أثير نقاش آخر أتسعت دائرته عن التمييز وعدم المساواة الذي تتعرض له فئات من ذوي البشرة السوداء في المنطقة، وكنت شاهدا على إنبعاث هذه المطالب في السياق العراقي، لا سيما مع وجود أيقونة مشابهة لجورج فلويد وهي الناشط المدني (جلال ذياب) الذي إغتيل في البصرة، جنوب العراق، عام 2013.

أسهم (جلال ذياب) في تأسيس حركة العراقيين الأحرار (أنصار الحرية) لمواجهة سياسات التمييز ضد الافروعراقيين والذين يقدر وزنهم الديموغرافي بحوالي 400.000 في مختلف إنحاء البلاد وإن يكن تمركزهم الديموغرافي في البصرة جنوب العراق. وحين التقيته في عام 2009 كان قد علّق جلال صورتي "مارتن لوثر كنغ"، و"باراك أوباما" على حائط مدرسته لتعليم فقراء الأفروعراقية بعد فوز الرئيس أوباما بمعركة الرئاسة الأميركية، وكانت الصورتان تشيران إلى صحوة هوية غير متوقعة في مناطق الأقلية الأفروعراقية في البصرة، وتتحدث عن عراق آخر "ممكن" يجري تخيله في نضال المدافعين عن المساواة ومكافحة التمييز العنصري. وبقوة إلهام هذه الإيقونة استيقظ التاريخ الذي جرى إسكاته في كتب المؤرخين العرب المسلمين لهذه الفئة المستبعدة والمهمشة، وقصص خطف وشراء أجداد "جلال" من أفريقيا إلى العراق على يد تجار الرقيق العرب، وثورتهم التي طمرت في كتب التاريخ العربي.

كان جلال الذي ولد في (الزبير) وهي منطقة التركز الديموغرافي للأفروعراقيين، ثوريا يريد تحرير مجتمعه من تراث القمع المترسب منذ قرون، فعندما وزع الخلفاء المسلمون في العصور الأموية والعباسية مقاطعات شاسعة على قادة الجيوش المحاربة التي غزت العالم في أقاصي الشرق والغرب، استخدم هؤلاء القادة "ذوي البشرة السوداء" في إصلاح الأراضي وزراعتها، حيث عمل

عشرات الآلاف منهم في ظروف قاسية، انتهت بثورتهم أكثر من مرة، استمرت أشهرها والمعروفة بثورة الزنج مدة 15 عاما (بين سنة 869 – 883 م). رافق القمع الذي واجهته ثورة الزنج إجراءات تقويض تلك القوة السوداء المتمردة على ما عدّ آنذاك بمثابة تابو سياسي وديني، ألا وهو الخروج على سلطان خليفة المسلمين .

عاش أجداد جلال في مناطق المستنقعات في البصرة، معرضين للأوبئة الفتاكة في بيئة تتسم بالقسوة المناخية، وفضلا عن عملهم المرهق لم يكن طعامهم يكفي لمواجهة شروط العمل كعبيد، وكانت بنيتهم الاجتماعية مفككة بسبب عيشهم بعيدا عن أوطانهم الاصلية. وتعين عليهم نقل الملح على ظهور البغال إلى أسواق ومنافذ البيع، ومنهم من عمل في بيوت التجار والأغنياء والمتنفذين. وبعدها اصبح اطفالهم جزءاً من تركة ورثها اغنياء البصرة ورؤساء عشائر الجنوب وإقطاعيوهم من العوائل المتنفذة، وتراكمت قصصهم عبر القرون لتكشف عن ثقافة لم نتحرر من رواسبها وتأثيرها حتى الوقت الراهن. وتراكمت قصصهم عبر القرون لتكشف عن ثقافة لم يتحرر من رواسبها مجتمع الأفروعراقيين حتى الوقت الراهن. كان جلال هو الرجل الذي أحيا كل هذا الماضي المستتر الذي أغفلته مناهجنا الدراسية وكتب التاريخ الرسمية، وربط بين الذاكرة الجريحة لماضي الأفروعراقيين مع وعود التحرر منها في عراق ما بعد الاحتلال الأميركي، وجذب الانتباه إلى قوة أخرى للتغيير، يسهم من خلالها الأفروعراقيين في إثراء تنوع العراق وتعدديته بحيويتهم المدهشة.

"لدي حلم" في البصرة

كانت الروح الحية لحركة الأفروعراقيين تنمو، وفي وسطها يظهر "ذياب" مثل أب لعائلة تفرق أفرادها وتشتتوا، ولم يعد أحد يتعرف على الآخر إلا من خلال الصمت والكبت والنسيان. لكن كلمات جلال ذياب المتواضعة وأعماله كانت الصمغ الذي يجمعهم من جديد، وهي لا تقل أثرا عن خطاب "لدي حلم" لمارتن لوثر كنغ الذي ألقاه عند نصب لنكولن التذكاري في 28 أغسطس

1963 أثناء مسيرة واشنطن للحرية عندما عبر عن رغبته في رؤية مستقبل يتعايش فيه السود والبيض بحرية ومساواة وتجانس.

أذكر أنني حين زرت جلال لأول مرة في مقر جمعية أنصار الحرية الانسانية تحدثنا عن خطاب "عندي حلم" المعروف لمارتن لوثر كينغ، وتسألت اذا كان جلال يحمل حلما مماثلا: رؤية مستقبل ينتهي فيه التمييز ضد السود، ويضع خاتمة لثورة الزنج التي أجهضت وأستمرت عواقبها لقرون تحت الرماد. وللجواب على هذا السؤال أشار جلال الى ثلاث صور معلقة على الحائط : في الوسط كانت صورة (مارتن لوثر كينغ) تحيطها صورتان لباراك أوباما الذي كان قد فاز للتو بسباق الرئاسة الأميركية، وفهمت السعي النبيل لهذا الرجل الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات حين تم اغتيال كينغ في 4 نيسان 1968، ولم يتصور إن تأثير خطاب كينغ سوف يعبر الالاف الأميال ليصنع حلمه الخاص بعد أكثر من أربعة عقود. وعلى الرغم من إنه لم يكن يمتلك بلاغة كينغ، فقد كان يؤمن بأن حلم المساواة في خطاب "عندي حلم" قد تحقق أخيرا في اليوم الذي فاز فيه أوباما بالانتخابات الرئاسية في 20 كانون الثاني عام 2009، وأن هذا الحلم قد يتحقق يوما ما في العراق.

اعتقد إن التشابه بين (جلال) و(كينغ) لم يكن سطحيا، بالرغم من فارق زمني يبلغ 45 عاما فاصلا بين الاغتياليين، وأختلاف السياق الاجتماعي والسياسي بين الولايات المتحدة والعراق، وقد جرى اغتيال كينغ وجلال في الشهر نفسه (أي نيسان)، لأسباب سياسية تبعد شبهة السبب الجنائي المحض، وسرعان ما تحول جلال بعد مقتله الى رمز داخل مجتمع الإفروعراقيين. وأصبحت قصة أغتيال هذا الأب لأربعة أطفال، منهم ثلاث بنات ستظل دليلا على سيادة ثقافة الإفلات من العقاب، ومحاولة للإجهاز على حلم مجتمع كامل برصاصة غادرة. وقد جدد مقتل (جورج فلويد) بعث قصة هذا المجتمع مجددا في سياق جديد، بيد أن حلم مارتن لوثر كينغ بالمساواة لم يستطع إن يجتث جذور العنصرية في بلدان أخرى راسخة في الديمقراطية.

لم يتوفر لجلال ما توفر لكينغ الحائز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة بوسطن، إذ لم يحز جلال على تعليم جامعي، وكان شخصا عمليا، ومستعدا للتعلم، صحيح أنه في سياق البصرة الخاص والسياق العراقي العام لم تنضج الظروف الى حد تبلور جسم مدني شبيه بـ" حركة الحريات المدنية" الاميركية، ويبدو مستحيلا لجلال ان يخطب– كما فعل كينغ– في 250 ألفاً من مناصري الحقوق المدنية الذين يتطلعون لهدف إنهاء التمييز العنصري، لكن كانت حماسة جلال للتغيير صلبة مثل صخرة، إذ كان قادرا على إقناع اطفال العشوائيات بان يلتحقوا بالمدرسة، وإن يتعلم الشبان مهارات تضع حدا لبطالتهم المزمنة. وعلى الرغم من إنه حين نزل بي درجات مقر منظمته المتواضع لم يجد منبرا مماثلا لدرجات سلم نصب لنكولن التذكاري التي حولتها كلمات كينغ الساحرة إلى منبر عظيم، لكنه كان يتحدث في كل ورشة أدعوه لها في بغداد او البصرة بشجاعة ملفتة، كان يوقظ تاريخا مسكوتا عنه من التمييز، وثورة سوداء رابضة تحت الرماد تجعل الحاضرين يرفعون الأيادي مستنكرين، إذ لم تُولد بعد شجاعة الأعتراف لديهم، ولا القدرة على مواجهة الماضي وغربلة التراث اللازم لكل عملية إصلاح شاملة.

ولأن "جلال الأب" كان أشبه ببابا للسود ظهر لكي يعلن عقيدة جديدة، فقد اصبحت جمعيته "أنصار الحرية الإنسانية" مثل كنيسة فقيرة، كانت مقرا للبابا الذي يزوره المؤمنون وينالون بركة ولادتهم الجديدة؛ عمل تطوعي، تعلّم مهن جديدة، مناسبات للزواج داخل الجمعية، وقبل أن يتنبه جلال إلى رمزية المكان التي أخذ يحتلها في صناعة هوية سوداء تحول المبنى إلى مزار مقدس، فتلطخ جداره في منطقة الآثار في الزبير بالحناء

قبل ظهور البابا الأسود، كان الناس يلجأون عادة إلى شيوخ العشائر إذا حصل خلاف أو حدثت مشاجرة، وبما أن الأفروعراقيين كانوا أشباها او مجرد ظلال لأعضاء العشيرة؛ فقد كان من السهل على الشيخ أن يفرط بحقوقهم أو يجامل على حسابها، فهم ينتسبون إلى العشيرة انتسابا شكليا مختلفا عن الروابط التي كانت تربط ما بين أبناء العشيرة الصليبة؛ (أي الذين ينحدرون من صلب واحد)، لذلك كانوا لا يستطيعون أن يكوّنوا شجرة نسب مطلقا. لذا بدأ الناس يتجهون إلى "ذياب"

لحل مشكلاتهم، فقد كان الأخير يقاتل في سبيل أن يتوقف إذلال الإنسان الأسود البشرة إلى الأبد. انفرطت سلطة شيخ العشيرة التقليدية وظهرت سلطة جديدة جذبت السود إلى قوة يصعب تفسيرها بغير فهم تاريخ الأفروعراقيين منذ ثورة الزنج حتى وقتنا هذا، كان "ذياب" بإيقاظه هذه الروح قد تخطى فعلا الخط الأحمر، وتحدى أكثر من سلطة رمزية وفعلية حوله

باشر جلال إنشاء صندوق لمساعدة الأفروعراقيين على إحياء حفلات زواجهم، وتوفير جميع مستلزمات إحياء الحفلات، فقد كانت روح الفرح المطلق التي تهيمن على قصة الأفروعراقيين الحزينة هي خزان وقود لا ينضب للروح الجديدة، لكن يبقى العمل الأهم الذي قدمه هو إنشاء مدرسة لمحو أمية الأفروعراقيين، والتركيز من خلال دروسها على تثقيفهم اجتماعيا. وقد انتصب مبنى الجمعية مثل سفينة نوح خلاصية في وسط طوفان عشوائيات الأفروعراقيين، فتحت سفينة البابا الأسود أبوابها لمن يرغب في الانعتاق من الغياب والنسيان، وتوافد سكان العشوائيات حول مبنى الجمعية في منطقة الآثار في الزبير منجذبين الى قوة خفية، فهذه هي المناطق التي يستوطن فيها اغلبية الأفروعراقيين بعد أن بدأ تحررهم التدريجي من سلطة الوجهاء والإقطاعيين تدريجيا منذ تأسيس العراق المعاصر.

لكن الحلم الذي أيقظه جلال ذياب جرى إسكاته بالرصاص عام 2013، فقد مثل هذا الحراك تهديدا لإحزاب الاسلام السياسي التي كانت تفرض ثقافة مختلفة في البلاد، وكانت تنظر الى هذه الحركة كعارض للتأثير الأميركي المضر، والذي قد يهدد الهوية الإيديولوجية التي فرضوها قسرا على الناس. لكن مثل هذه الذكرى لا يمكن أن يجري إسكاتها طويلا، فقد أوحت بإمكانية الثورة على سلطة كاتمة للأنفاس تستثمر المقدس لقتل حلم الناس بالتغيير، وبعد مرور سبع سنوات على اغتياله أيقظ مقتل (جورج فلويد) حلم (مارتن لوثر كنغ العراق) بالمساواة ومناهضة التمييز، وقد يوقظ حلما مماثلا لجميع الشرق أوسطيين من أصول أفريقية. إن شعلة حلمه بالمساواة ومناهضة التمييز لن تخمد أبدا.

تحالف أبراهيمي في الشرق الأوسط

منذ الرحلة الأولى إلى الأراضي المقدسة في عام 1964، كان الشرق الأوسط وِجْهة رئيسية للرحلات البابوية. ومع أن هذه الرحلات شملت العديد من دول المنطقة، فإن البابا لم ينجح في زيارة العراق عقودًا.

مع ذلك، حاول البابا الراحل (يوحنا بولس الثاني) أن يحصل على تأثير أكبر، من خلال توسيع نطاق تركيز أنشطة زيارته بمناسبة الألفية الثانية لميلاد المسيح، ويضم العراق بوصفه إحدى محطات الرحلة، حيث –وفقًا للتقاليد الإبراهيمية الثلاثة– بدأ النبي إبراهيم رحلته الإيمانية من مدينة "أور". لذا، تضمنت خطط سفره الأولية إلى الشرق الأوسط ثلاث رحلات: رحلته إلى الأرض المقدسة التي حدثت في نهاية شهر آذار/مارس، ورحلته إلى جبل سيناء في شباط، حيث تسلَّم موسى عهد إسرائيل. لكن رحلة الثالثة التي كانت إلى "أور" لم تتحقق. وهكذا خرجت أرض إبراهيم من مسار الرحلة البابوية، وخسر العراق فرصة الاندماج في المجتمع الدولي بعد عقد من العقوبات الدولية بعد حرب الخليج عام 1991.

فرنسيس في أور

في عام 2021 رددت الزيارة التاريخية للبابا فرنسيس لمهد النبي إبراهيم، والصلاة في أور، صدى نجاح يوحنا بولس الثاني، عندما سافر إلى المغرب في عام 1985، حيث خاطب الشباب ودعاهم إلى خلق مستقبل سِلمي للجميع، وعقَد مع ممثلي الطوائف المختلفة "اليوم العالمي للصلاة من أجل سلام أَسِّيزي"، الذي يُقام بانتظام منذ عام 1986، لا سيما وإن الشباب العراقيين خرجوا في تشرين الأول/أكتوبر 2019 في ثورة طامحة، لخلق مثل هذا المستقبل المفعم بالسلام لجميع مواطنيهم.

جمعتني خلال التحضير لزيارة البابا لقاءات عديدة مع شباب المدن المختلفة في العراق، من البصرة جنوب العراق حيث المدينة الغنية بالنفط، الى الموصل شمال البلاد حيث التنوع الديني

الذي يشمل الإيزيديين في سنجار والمسيحيين والشبك في سهل نينوى والتركمان في تلعفر والعرب والأكراد والكاكائيين في مختلف مدن المحافظة. خاطبت الشباب عن ثلاث لحظات رائعة منحت للشعب العراقي بعد عقود من الدكتاتورية والعقوبات الإقتصادية والأحتلال : الأولى توحد العراقيين أمام غزو تنظيم داعش في 2014، وازاء تدمير ماضيهم المشترك. الثانية الحراك الاحتجاجي للشباب في اكتوبر 2019 الذي أظهر لأول مرة تضامنا واسع النطاق بين أجيال عراقية مختلفة وبين عراقيي الداخل والخارج وبين مختلف الخلفيات الدينية والإثنية. والثالث كان زيارة البابا التي منحت العالم صورة أخرى عن العراق غير تلك التي أعتادوا مشاهدتها في القنوات الفضائية، أي صورة الدمار والحرب والنزاع والقتل الجماعي. كما إنها منحت العراقيين تذكيرا بعمق الإرث الديني الذي يحملونه والذي قدموه للعالم، حيث يوجد بيت النبي أبراهيم في أور وبدأ رحلته التي غيرت الخريطة الروحية للعالم القديم، وأسست لأنطلاق رحلة الأديان الثلاث الكبرى : اليهودية، المسيحية، الإسلام.

كان هذا تحديا كبيرا عمره أكثر من عام من العمل المتواصل في التحضير لزيارة البابا المرتقبة، وأكثر من خمسة عشر عاما في حوار الإديان : كيف يمكن أن ننشر الوعي في تلقي زيارة البابا على نحو يحفز الرسالة التي ينطوي عليها العراق كبلد تعددي. كيف يمكن توجيه زيارة البابا على نطاق رمزيّ أوسع، انطلاقًا من الطابع التعدُّدي لبلاد ما بين النهرين، متضمِّنًا دعوةً إلى تغيير صورة نمطيّة عن البلاد.

بمعنى من المعاني كانت الزيارة البابوية تختصر مراحل من حياتي كشاب عراقي نما وعيه خلال ثلاثة عقود من الحروب : الحرب مع ايران 1980–1988 وحرب تحرير الكويت من العراق 1991 وحرب العقوبات الدولية ضد العراق 1991–2003 وأخيرا الغزو الأميركي والاحتلال بعد 2003. وكان البابا الراحل يوحنا بولس قد أراد زيارة مدينة أور العراقية القديمة في عام 2000، والتي كانت الخطوة الأولى من ثلاث مراحل حج إلى العراق ومصر وإسرائيل. ولكن، لم تتم الزيارة مع انهيار المفاوضات مع الحكومة العراقية آنذاك في عهد صدام حسين. وقد أصبحت زيارة البابا ومنذ عقدَين من الزمن، مِرآةً لِمَا يمرُّ به العراق من تحوُّلات عميقة على المستوَيَيْن

الاجتماعي والسياسي؛ إذ واجهَت مشروعاتُ الزيارات السابقة تحدِّيَاتٍ خلال العشرين سنة الماضية. فكانت الأُولى قد قُرِّرت في عهد البابا الراحل يوحنا بولس الثاني، وبالتحديد في شهر كانون الأول/ديسمبر 1999، ضِمن جولة البابا التاريخية مع نهاية الألفيّة الثانية، لكنها أُلغيَت لأسباب سياسية، في وقت كان فيه ""صدَّام حسين"" يَحكم البلاد. أمّا الثانية، فقُرِّرَت بعد عشرين عامًا من إعلان الزيارة الأولى، لكنها أُلغيَت أيضًا لأسباب أمنيّة، إذ ذَكر وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال ""بيترو بارولين""، أنّ الحدَّ الأدنى من الشروط الأمنيّة ""لم تكُن مُستَوفاة""، خلال زيارته للعراق في كانون الثاني/يناير 2019.

كان إعلانُ قداسة بابا الفاتيكان "فرنسيس"، عزمَه على زيارة العراق عام ٢٠٢٠، قد أثار ارتياحي الشخصي، لكن تأجيل الزيارة عاما كاملا أحبط سعيي، وكنت في زيارة لكردستان العراق حين أطلعت على تصريح وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال بيترو بارولين أن الظروف الحالية لا تسمح بزيارة البابا فرنسيس للعراق. قال بارولين–الذي كان قد زار العراق مؤخرا– في مقابلة تلفزيونية مع تلفزيون "تي في 2000" يوم الاربعاء ان "مثل هذه الزيارة تتطلب توفر الحد الأدنى من الظروف وهي غير متوفرة الآن". لذا، حين أعلن البابا فرنسيس عزمه ان عام 2021 سيكون عام زيارة العراق أطلقت رسالة موجزة على حائط صفحتي الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" وجهتها إلى المجتمع العراقي بمناسبة زيارة البابا فرنسيس، قائلا: "ليست زيارة البابا فرنسيس فريدة من نوعها لأنها رحلة للكرسي الرسولي يمر فيها في أرض إبراهيم، في أرض سومر وبابل وأشور فحسب، إنها لحظة تاريخية لأن العالم يراكم، أيها العراقيون، كما أنتم، لأول مرة." وألمحت "أنها لحظة تاريخية لأن العالم لا يراكم من عدسة الإعلام الدولي أو العربي، لا يراكم في الصور النمطية لفوكس نيوز أو سي إن إن، أو الجزيرة أو العربية، إنها لحظة تاريخية لأنها تستعيد هويتكم الحقيقية التي غطاها رماد الزمن." وكتبت في رسالتي للشعب العراقي، عن الزيارة "أنها لحظة تاريخية، لأن العالم يتطلع إليكم من جديد، يراكم خارج عدسة الفشل والحرب والنزاع، خارج مكانكم المختزل كزاوية مستباحة، معدومة السيادة تعبث بها التنظيمات الإرهابية والمافيات والميليشيات فسادا وفوضى، أنها لحظة هاربة يتذكر فيها المجتمع الدولي حجم عمقكم الحضاري

والروحي، لحظة يستكشف فيها انطلاقة الإيمان من أرضكم، يحتفي بأبراهيمكم كأب للانبياء، وبأوركم كأرض الرسالات."

وكان الهدف من الرسالة حث المواطنين على التوقف عن التعامل مع الزيارة كمنصة لنشر السلبيات، ودعوة للعراقيين أن يستعيدوا من خلالها ثقتهم بهويتهم وأرضهم، ثقتهم بعراقهم الذي هو عاصمة التنوع ومنطلق حوار الأديان وموطن الحضارات. وأختتمت الرسالة بالقول "لا تدعو لحظة الفخر الوحيدة من أعوام أن تفلت من بين أيديكم لأنكم لم تروا أبعد من واقع سياسي محبط كاتم للأنفاس."

ولشد ما أعجبني أصرار قداسة البابا فرنسيس على زيارة العراق على الرغم من التهديدات الأمنية والصواريخ المنفلتة والتشويهات المتعمدة لصورة العراق، كان هذا أمرا جديرا بالتقدير. يعود جزء من أصراره، على ما اعتقد، الى انه عاش ظروفا شبيهة بما يحدث في بلادنا. فقد قضى (بيرغوليو: هذا كان أسمه) معظم حياته المهنية في الأرجنتين، وواجه وقتًا عصيبًا في تاريخ بلاده. في أواخر السبعينيات، استولى جزء من الجيش على الحكومة. حكموا الشعب بالحديد والنار حتى عام 1983، تلك الفترة تعرف الآن باسم الحرب القذرة، تم خطف أو قتل الآلاف من الأرجنتينيين، وشمل ذلك بعض القساوسة المتهمين بالعمل ضد الحكومة.

أعتقد أن البابا فرنسيس يمثل منعطفا في تاريخ البابوية الحديث، على الرغم من إن البابوية هي مؤسسة تُظهر استمرارية ملحوظة بين أصحاب المناصب المتعاقبين، الذين نادراً ما ينبذون تعاليم أو مساهمات أسلافهم. في الوقت نفسه، يشهد التاريخ الحديث ابتكارات لا يمكن إنكارها وضعها الأحبار المتعاقبون، يضع كل بابا "نسخته" المميزة الخاصة به على المكتب وكيفية تنفيذها، حتى مع بقاء النقاط الرئيسة في العقيدة الكاثوليكية والمواقف الأساسية للكنيسة الكاثوليكية ثابتة في مكانها على المدى الطويل، على سبيل المثال، فإن خلفية القديس يوحنا بولس الثاني كفيلسوف شخصي وزعيم كنيسة في بولندا التي يسيطر عليها الشيوعيون والعمل السابق لبينديكتوس السادس عشر كعالم لاهوت أكاديمي ووصي رسمي للعقيدة الكاثوليكية قد أثرت بالتأكيد على تعاليمهم وأفعالهم طوال حياتهم، ترك كل منهم إرثًا مميزًا يعكس تاريخه الشخصي واهتماماته الخاصة، ولا

شك إن فلسفة البابا فرنسيس تكمن في تواضعه الجم وبساطته، وستكون زيارة العراق، مهد الإديان السماوية نقطة مضيئة في إرثه الباقي.

بالنسبة لي–كمدافع عن التنوع– كانت زيارة البابا بمثابة فرصة نادرة لجذب الانتباه لما يحتويه العراق من عناصر تنوّع تعدّ عامل قوّة تؤهّل البلاد كعاصمة للحوار الدينيّ في المنطقة، في وقت تشهد فيه الأخيرة انقسامات إثنيّة عميقة بسبب السياسات الطائفيّة السائدة في الشرق الأوسط في الأعوام الماضية، وميراث الصراع العربيّ – الإسرائيليّ خلال العقود السابقة، وأخيراً تهديد الوجود المسيحيّ الذي يتعرّض للانقراض في دول الإقليم بعد غزو "داعش" سوريا والعراق. وتقدّم عناصر القوّة الناعمة إلى العراق من تنوع ثري، مرجعية موحّدة لكلّ مكوّنات المجتمع، في ضوء التراث الدينيّ المشترك الذي تضمّه بالنّسبة إلى أتباع الأديان الـ3 الكبرى.

ولكن تأثير البابا قد يكون أوسع تأثيرا ويشمل المنطقة بأسرها، فالبابا، شخصية من العالم الثالث (الارجنتين)، ورئيس أصغر دولة في العالم (الفاتيكان) وممثل للكرسي الرسولي(رأس الكنيسة الكاثوليكية)، لهذا يجمع صفات نادرة ومتداخلة، ويجب ان نتفهم طبيعة التداخل وتأثيره على قراراته وصياغة سياساته. وقد وفر عمله في قضية سياسة المناخ دراسة حالة عظيمة للسلطة الأخلاقية على المستوى العالمي. نظرًا لأن الكوكب يفتقر إلى حكومة عالمية، فإن المتحدثين الرسميين الذين يمثلون المصالح العالمية (مقابل مصالح الدول) نادرون. علاوة على ذلك ، يقدم فرانسيس إطارا أخلاقييا نادرا في عصر شديد العلمانية. في الواقع، من خلال أفكاره وأقواله وأفعاله، يتبنى ويجسد القيادة الأخلاقية في العديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العالمية.

كان للكرسي الرسولي، دور بارز، من قبل، في بعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي عقدتها الأمم المتحدة مثل التأثير على مفاوضات ونتائج مؤتمر القاهرة للسكان عام 1994، ومؤتمر المرأة في بكين عام 1995 ، والدورة الخاصة للجمعية العامة حول فيروس نقص المناعة (الإيدز) عام 2001. أما دوره في قضايا عدم الاستقرار والنزاع في الشرق الأوسط، فهي الأكثر

تعقيدا، بسبب مكانة بلدان المنطقة الرمزية والروحية، وطبيعة النزاع الذي يجمع اتباع الأديان الإبراهيمية فيها. (حرب الخليج 1991 وغزو العراق 2003)، (النزاع الفلسطيني–الاسرائيلي)، (الحرب في سوريا)، (الحرب في اليمن)، (الصراع مع ايران) الخ.

وبالاعتماد على الزيارة الأولى لبولس السادس إلى الأراضي المقدسة والآفاق بين الأديان التي فتحها المجمع الفاتيكاني الثاني، وضع يوحنا بولس الثاني الأساس لدور بابوي نشط في الشرق الأوسط. كانت رؤيته للشرق الأوسط الإبراهيمي تهدف إلى إحلال السلام في المنطقة، ويمكن تصورها على أنها تحالف إبراهيم في السياسة العالمية.

وبعبارة أكثر تفصيلا، فقد واصل خلفاء يوحنا بولس الثاني رحلة الحج البابوية من أجل السلام. في حين كان بنديكتوس السادس عشر متفائلاً بما يكفي للضغط من أجل التغيير والترحيب بالربيع العربي بوصفه خطوة نحو رؤية (ما بعد العلمانية) في المنظور البابوي، اختار البابا فرانسيس، الذي شهد الحرب الأهلية في سوريا وصعود الدولة الإسلامية، مسارًا سياسيًا ودبلوماسيًا أكثر فاعلية، ونقرأ رحلته العام الماضي الى ابو ظبي والى العراق هذا العام في هذا السياق، كما يمكن أن نفهم وثيقة اعلان "الاخوة الانسانية" على انها تجديد لتحالف ابراهيم في دعم السلام في الشرق الأوسط.

البابوية والخيارات الثلاث في الشرق الأوسط

تحاول الدعوة البابوية لرؤية ما بعد العلمانية في الشرق الأوسط، خطَّ طريقٍ ثالث بين الإسلام السياسي والقومية العلمانية، مؤكدة على بناء حيز محايد، يمكن فيه للمسيحيين والمسلمين العيش في ظل الأُخوَّة الإيمانية الإنسانية. المسيحيون لا يدركون وسط مآسيهم ان هذه الرؤية قد تحمل الخلاص لمجتمعاتهم المتدهورة على المدى الطويل، وتنقذ بلدانهم من الانهيار والصراع.

وجدت هذه الرؤية البابوية أهميتها بعد خيبات الربيع العربي، فعندما وصلت الاحتجاجات التي انطلقت من تونس بعد بضعة أشهر ، إلى مصر ، أصبح الربيع العربي قضية مسيحية. احتج

المسيحيون والمسلمون معًا ضد نظام علماني تعتمد سلطته أيضًا على القدرة على التلاعب بالمسلمين ضد الأقباط، وقد حمل الربيع القصير بعض الثمار المرة لمسيحيي المشرق، وخاب أمل المسيحيين والمسلمين في تغيير إيجابي يضع بديلا مناسبا للدولة القومية المتعسكرة، وعلى الرغم من دعم البابا بنديكتوس السادس عشر عملية الدمقرطة التي كان يأمل أن ترتبط بهذا الربيع الإ إن النتيجة كانت مخيبة للآمال في مصر، ومرعبة في سوريا. ولم تخرج سوى تونس من عنق الزجاجة، لكن الأخيرة بعيدة جغرافيا، كأنها في عالم أخر، وليست مهمة لمسيحيي الشرق، كما لمشهد نهاية التنوع في الشرق الأوسط.

ظلَّت تحولات الشرق الأوسط تحدِّيًا مستمرًّا في نظر البابوية. فهي مهْد أخوَّة الإيمان من أتباع الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام). ومِن ثَمَّ، هي منطقة تحتل أهمية روحية ورمزية للكرسي الرسولي، مع أنَّ وزْنًا لا يستهان به من مسيحيِّيها هم خارج سلطة روما الروحية، وهم يشكلون مشهدًا مجزَّئًا للغاية، ومعرَّضًا للانقراض.

في حين تهيمن إسرائيل على الأرض المقدسة، وتجمعها علاقات نزاعية بمحيط إسلامي، يعيش معظم شعوبه في بلدان محكومة بأنظمة يهيمن عليها الإسلام على صعيد الدولة أو المجتمع – باستثناء لبنان–. ويُعَدُّ المسيحيون في معظم هذه البلدان أقلية غير فاعلة سياسيًّا في أغلب الحالات، وتتكون من العديد من الطوائف المسيحية أغلبها غير كاثوليكية أيضًا .

مع ذلك، فإنه إلى جانب الكاثوليك الذين يتبعون الطقوس اللاتينية والكنيسة المارونية في لبنان، هناك العديد من الكنائس في شراكة كاملة مع أُسقفِ روما: كنيسة الروم الملكيِّين الكاثوليك (مقرها دمشق)، والكنيسة الكلدانية الكاثوليكية (مقرها بغداد)، والكنيسة القبطية الكاثوليكية (مقرها القاهرة)، وكنيسة السريان الكاثوليك (مقرها دمشق)، والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية (مقرها بيروت). أيضًا جزءٌ من هذا التنوع هو كنيستان هنديتان: كنيسة Syro Malabar الكاثوليكية (كنيسة مالابار السريان الكاثوليك)، والكنيسة الكاثوليكيةSyro Malankara (كنيسة مالانكارا السريانية

الكاثوليكية)، اللتان تتمتعان بعلاقات تاريخية وثيقة بالكنائس الشرقية في الشرق الأوسط، والتي يتألف وجودها الحالي في المنطقة من المهاجرين الهنود، الذين يشكلون جزءًا مهمًّا من القوى العاملة في شبه الجزيرة العربية.

وُجِد الحضور البابوي في سياساته اتجاه الشرق الأوسط، ضمْن صراع ما بعد نظام المِلل العثماني، وما بعد الاستعمار، في مواجهة القومية العلمانية، ثم الإسلام السياسي الذي بزغ نجمه مع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، ثم تَعزَّز مع احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وتحولات الربيع العربي عام ٢٠١١. وقد سعت البابوية برأيي لطرح سيناريو ثالث يتجاوز خِيارَ القومية العلمانية بثوبها العروبي، وخيار الإسلام السياسي ذي الإيديولوجية الحصرية والمهيمِنة على المجال العام. أيضًا تسعى البابوية للتفاعل مع شرق أوسط ذي جذور إبراهيمية مشتركة، ضمْن مسعى رؤية ما بعد العلمانية، حيث ينفتح مجال جديد مُحايد ومشترَك لمواطنيها على اختلاف أديانهم.

في ظل القومية العلمانية، أعاد المسيحيون تعريف هويتهم بعيدًا عن المحدَّد الديني، واندمجوا في أنظمة بديلة لنظام الملل العثماني، حيث يمكن أن يظفروا بنوع من المساواة بوصفهم مواطنين أُسوةً بالمسلمين، وتصدَّروا المشهد أحيانًا، كما في مثال طارق عزيز نائب رئيس الجمهورية في عهد صدام حسين. لكن هذا المثال ظلَّ استثناءً، لا سيما وأن طارق عزيز كان بعثيًّا أكثر من كونه مسيحيًّا كلدانيًّا كاثوليكيًّا، وظلَّ في لهجته (التي يقلِّد فيها أهل تكريت)، كما في مصيره المأساوي في السجن، مخلصًا لنظام علماني أدار المجتمع العراقي بقوَّتَي الحديد والنار .

صاغت تبِعات هذه الخيارات، سياسة الكرسي الرسولي تجاه الأنظمة العلمانية الأخرى. وفي مثال سوريا الأسد، ظلَّ الخوف من فوضى تعقُّب انهيار النظام الدكتاتوري، يأخذ عبرة من المثال العراقي، أو يتجنب السيناريو الأفظع لسيطرة تنظيم متطرف مثل الدولة الإسلامية، أو فوضى منفلتة تُشتِّت ما تبقَّى من مسيحيِّي المَشرق؛ أو كما في المثال الآخر في مصر، حيث كانت

العودة إلى قواعد الحكم التقليدي العسكري أهون الشرور، في ضوء بديل إسلامي إخواني، لا يمكن للمسيحيين الأقباط التعايش معه بسهولة.

"ما بعد العلمانية" رؤية تُحاول خطَّ طريقٍ ثالث بين الإسلام السياسي والقومية العلمانية، وهي تؤكد بناء حيز محايد، يمكن فيه للمسيحيين والمسلمين العيش في ظل الأُخوَّة الإيمانية الإنسانية. لذا، يُفهَم توقيع وثيقة الأُخوَّة الإنسانية في "أبو ظبي" سنة 2019، في هذا السياق الساعي إلى جمع أخوة الإيمان، لا سيما وأن البابوية لن تنظر بارتياح إلى بديل علماني، يَدفع بالإيمان إلى الحيز الخاص. وتُعَدُّ زيارة البابا فرنسيس لآية الله السيستاني، خلال رحلته إلى العراق، مكمِّلة في هذا السياق لمسعى ثابت يدافع عن هذا المنظور المشترك لأخوة الإيمان، لا سيما وأن الزيارة الأخيرة لـ"بابا الشيعة" في النجف، حاضرة الشيعة وفاتيكانهم، تُمثل تصويتًا على التواصل الروحي البنَّاء مع ما يربو على ربع مليار شيعي في العالم الإسلامي. أيضًا تُمثِّل زيارةُ مرجعيَّته المعتدلة –كما محطات الرحلة البابوية في بغداد و"أُور" النبي إبراهيم في جنوب العراق وأربيل وسهل نينوى والموصل في شماله–، مثالًا على دعم تنوع يجب إنقاذه، في ضوء نموذج دولة مواطَنةٍ حاضنة للتنوع الثقافي.

الحداثة والإصلاح : من بهاء الله الى الربيع العربي

لكن الوجه المظلم لمأساة الشرق الأوسط ونهاية التنوع، يخفي جانبا منيرا من إنبعاثه في المشاهد الثلاثة السابقة عن الزرادشتيين والكاكائيين والأفروعراقيين، والتي تمثل قطعا نادرة في سجادة التنوع الشرق أوسطية، وتشكل مشهد التنوع المخفي والمنسي في كثير من الأحيان، ولو أمعنا النظر لرأينا الوانا أخرى مثيرة وموحية، ويعد البهائيون جزء من مشهد التنوع المخفي والموحي في تاريخ المنطقة، وقد مرت ذكرى مئوية على بلدان الشرق الأوسط، هي الذكرى المئوية الثانية على ولادة "حسين علي النوري" الملقّب بـ"بهاء الله"، الذي ولد في بلاد فارس (ايران حاليا) عام 1817.

أحتفل البهائيون في أكثر من بلد عربي عام 2017 بهذه الذكرى مستلهمين تراثا روحيا ملهما للحضارات الانسانية التي عرفتها آسيا والشرق الأوسط

كان "بهاء الله" (1817–1892) مؤسس الدين البهائي، و"عبد البهاء" (1844–1921) مفسر تعاليمه وخليفته، حلقة ملهمة لسعي العقول الإصلاحية مثل "جمال الدين الافغاني" الشخصية الكاريزمية التي أمتد تأثيرها عبر الهند وافغانستان وإيران وتركيا ومصر وسائر بلدان العالم الإسلامي، و"عبد الرحمن الكواكبي" إبن سوريا، و المصريين "محمد عبده" و"رشيد رضا"، و"النائيني" في العراق وإيران، لاسترداد كرامة الإنسان في مواجهة الاستبداد. وقد سبقت زمنياً طروحات الإصلاح البهائية، ما قدمه عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" والنائيني في كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة"، إذ تضمن الكتاب الأقدس للبهائيين والرسالة المدنية لعبد البهاء دعوة إصلاحية للبلدان الإسلامية وللحضارة الإنسانية بشكل عام. هذا السعي الجدير بالتقدير يضع "بهاء الله" و"عبد البهاء" في طليعة ملهمي دعاة الحداثة ورموز الإصلاح في الشرق الأوسط.

وبعد مئتي عام من ولادته، ما تزال مبادئ دين "بهاء الله" خميرة للتفكير البديل بالنسبة لسائر شعوب المنطقة بعد فشل وعود الدولة الوطنية في إنجاز الحداثة والتنمية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وبوصلة لنموذج "مواطنة باعثة للتنوع في عالم ما بعد الربيع العربي.

كان الاحتفال بالمئوية الثانية لولادة مؤسس الدين البهائي يمثل فرصة للأوساط المثقفة والأكاديمية لإعادة قراءة التاريخ الحديث للشرق الأوسط من منظور يساعد في فهم سياق علاقة الدين والدولة في الفترة الفاصلة بين انهيار امبراطوريات الشرق الأوسط (القاجارية والعثمانية) ونشوء الدول الوطنية في إيران وتركيا والعراق وسوريا ومصر وبلدان أخرى، على خلفية من انبعاث الدعوات الاصلاحية في الشرق الأوسط، للانتقال من نمط الاستبداد السياسي إلى شكل من أشكال الحكم الديمقراطي أو التمثيلي.

بالنسبة لي وللعديد من المثقفين في العالم الناطق بالعربية، تزامن الاحتفال بالمئوية الثانية لمولد بهاء الله مع مراجعة ثقافية للفشل الذي انتهى اليه صعود نظام عالمي لنشوء الدول في بدايات القرن العشرين أتسم بالعنف الداخلي والخارجي، وترتب عليه صعود ظاهرة القومية في الشرق الأوسط وبلورة "نموذج دولتي" يقوم على وهم التجانس الإثني والقومي، وبعد فشل هذا النموذج مع ثورات الربيع العربي وتحدي السلطة الأبوية من خلال تظاهرات الشباب والحركات النسائية والمجتمع المدني ومطالب الاقليات والنسوية.. إلخ. كانت هناك حاجة عميقة للتفكير في نموذج جديد أو "بديل" ملائم لتحديات العصر. تصبح هذه المراجعة مهمة على نحو خاص في أزمنة المحنة التي تمر بها المنطقة في فترة ما بعد داعش، لا سيما بعد تدمير التنوع في كل من العراق وسوريا، وحالة الانسداد السياسي والانحطاط الثقافي والتفكك الاجتماعي، وفي ظل هوية نزاعية للمنطقة تحددها مخرجات الاستقطاب الطائفي السني/ الشيعي الذي أعقب عقوداً ضائعة من النزاع العربي الإسرائيلي.

أعتقد أن تتبع قصة البهائيين تقدم مراجعة من هذا القبيل، فقد تزامنت ولادة الدولة/الأمة بمظهرها المعاصر في الشرق الأوسط مع نشوء الدين البهائي وتطوره منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. ويتضح من خلال البحث، إن أفكار "بهاء الله" ومبادئ الدين التي دعا لها، كانت ذات تأثير ملهم للعديد من زعماء الإصلاح في الشرق الأوسط في كل من ايران ومصر وتركيا، بل، إنه مضى خطوة أكثر فعالية بتطبيقها من خلال إنشاء مؤسسات للحكم الديمقراطي لاتباعه "بيوت العدالة، في بداية الدّعوة على جميع مستويات مناطق انتشار الدين البهائي في مهد نشأة هذا الدين: ايران، وأعرب عن أفكار ستظل مطلباً لجميع الدعوات الاصلاحية في العالم العربي في القرن الذي تلاها مثل : الفصل بين الدين والسياسة، التأييد الكامل للحرية الدينية، ضرورة التوافق بين الدين والعلم، والمساواة التامة بين الرجل والمرأة. وقد فصّل "عبد البهاء" الإبن الأكبر لبهاء الله ومفسر تعاليمه، هذه التعاليم الإصلاحية وشرحها عبر خطبه ومؤلفاته ورسائله، لا سيما "الرسالة المدنية" التي تعد وثيقة إصلاحية أساسية .

صحيح إن التعاليم البهائية وما ترسمه من خريطة طريق للإصلاح الاجتماعي والسياسي سبقت دعوات وأفكار أصلاحية أخرى في الشرق الأوسط، وكانت هذه الأفكار قابلة للنمو خلال العقود الماضية بما يتناسب مع السياق التطوري للأفكار الاجتماعية والسياسية في القرن العشرين، شاملة مجالات تتراوح بين الدعوة للدستورية وإرساء الديمقراطية إلى تعليم المرأة ومساواتها بالرجل والإصلاح الديني وفصل الدين عن السياسة وتحقيق العدالة الاجتماعية.

كانت الاتصالات والتفاعلات بين البهائيين والشخصيات الإصلاحية في كل من ايران وتركيا ومصر مثل محمد عبده ~~وجمال الدين الأفغاني~~، والأتراك الشباب (الإتحاديون)، والدبلوماسيون في الدولة الإيرانية القاجارية ووزراء السلطان العثماني تبّين انخراط البهائيين الفعّال في التفكير بمصير شعوب المنطقة ومستقبلها. إذ، لم تكن التعاليم البهائية منفصلة عن أفكار عصرها الإصلاحية، وليس القصد من طرح هذه الصلات بين الزعماء البهائيين ورواد الإصلاح في عصرهم إثبات تأثر الزعماء البهائيين بالأفكار الإصلاحية الرائجة في عصر النهضة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بمقدار ما تجدر الإشارة الى التزام البهائيين بتطبيقها منذ بداية دعوتهم الدينية وحتى اليوم من أجل تأسيس مجتمع جديد، وراهنيتها واهميتها للأزمنة المعاصرة، مثل فكرة السلام العالمي ونبذ التعصب الديني والمساواة بين الرجل والمرأة والتوفيق بين العلم والدين.. إلخ.

من الصعب تحديد تأثير الاتصالات بين الزعماء البهائيين والعديد من الإصلاحيين البارزين في القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي. ولكن عدم وجود إشارات جوهرية إلى البهائيين في أعمال هؤلاء، لا تؤخذ على أنها دليل على عدم وجود تأثير، إذ كان من الطبيعي في ظل وسط إسلامي تقليدي ومتزمت في كثير من الأحيان، أن لا يحرز الاصلاحيون المسلمون نجاحا في دعواتهم الاصلاحية إذا ما قرنوا افكارهم بالبهائية أو تحملوا عبئاً إضافياً بربطهم بدعوة دينية تتجاوز الحدود السياسية والجدران العنصرية والقوميات المتنوعة والأديان المختلفة، لتطالب بوحدتها جميعا، وسيظل هذا الخوف أحد المحددات الرئيسة لإخفاء جانب من تاريخنا المعاصر وإهماله

على نحو متعمد، وبشكل بالغ القسوة أحياناً، كما يتضح في الأدب المناهض للبهائية الواسع الانتشار والمثير للغثيان. ولعل أول محاولة منهجية للتغطية على تأثير الأفكار البهائية قادها "رشيد رضا" صاحب مجلة "المنار"، فقد قلل من أهمية الصلات الوثيقة لإستاذه "محمد عبده" مع "عبد البهاء"، مقدماً صورة منقّحة من "محمد عبده" تتفق مع نهجه السلفي.

وكانت "الرسالة المدنية" التي كتبها "عبد البهاء" عام 1875، قد وضعت تعاليم "بهاء الله" في سياق أوسع لرؤية بديلة، وفي مواجهة الاستبداد الذي ميّز حكم السلالة القاجارية في ثمانينيات القرن التاسع عشر. انخرط "عبد البهاء" الذي لم يتلق تعليماً تقليدياً (بسبب مرافقته رحلة نفي والده التي بدأت في بغداد 1853–1863 مروراً بأسطنبول 1863 وأدرنة 1863–1886 وانتهت في عكا 1886–1892) في نقاشات عصره في تركيا (فترة نفي أدرنة 1863–1868) وبيروت (حيث التقى محمد عبده 1887) ومن ثم في مصر (حيث خاض نقاشات مع أبرز المثقفين في عصره 1910–1913)، وكان متابعاً شغوفاً لكل ما يصل إليه من الصحافة المصرية والتركية، على سبيل المثال كانت تصله بانتظام في مكان نفيه في "عكا" دورية "العروة الوثقى" التي اصدرها "جمال الدين الأفغاني" من باريس بالتعاون مع "محمد عبده."

تعد "الرسالة المدنية" مانفيستو (بيان) للإصلاح الاجتماعي والديني، سبق زمنياً الكتابات الإصلاحية الشهيرة لرواد الحداثة في الشرق الأوسط من مسيحيي بلاد الشام أو مسلمي إيران وتركيا ومصر والعراق. وقد نشرت لكاتب مجهول الهوية في بومباي عام 1882، وتكمن اهميتها في كونها الكتاب الثاني الذي يطبعه البهائيون بعد كتاب "الإيقان" الذي كتبه بهاء الله في بغداد عام 1862.

المرحلة الثانية من قصة البهائيين تمثل سنوات المحنة في علاقة البهائيين بالدولة في الشرق الأوسط، وهناك تاريخ غير مسجل أو مروي للبهائيين تتبعته خلال لقاءاتي بالبهائيين في أكثر من 13 دولة، وبالاعتماد على شهادات ومقابلات أجريتها مع البهائيين في العراق ومصر والمغرب

وتونس واليمن ولبنان والأردن وسوريا وإيران والكويت وعمان وقطر والبحرين. ارتسمت أمامي صورة شاملة عن الاضطهاد المنهجي الذي تعرضوا له في ظل الجمهورية العربية المتحدة تحت قيادة "جمال عبد الناصر" بعد صدور قرار تحريم البهائية 1960 وفي المغرب 1962 وصدور حكم بالإعدام على معتنقي البهائية، مروراً بتجربتهم في ظل الحكم البعثي في العراق بعد صدور قرار تحريم البهائية 1970، وأخيراً مأساتهم في ظل ايران الثورة الاسلامية 1979. أما الاضطهاد الذي يواجهه بهائيو اليمن في السنوات الأخيرة، فيعد حلقة في تاريخ متواصل من الفشل الدولتي في الاعتراف بالتنوع الديني وعلامة على انحباس المجال العام وحصريته.

نتيجة لذلك، حُرم البهائي من ممارسة قناعاته الدينية علناً او اشهار هويته الدينية والاعتراف بها رسميا، وكما اخبرني احد البهائيين اللبنانين ساخرا ذات مرة "البهائيون ليس لهم سوى حق الموت، اذ يحق لهم ان يدفنوا موتاهم في مقابر بهائية". وفي حين لا يتاح لهم أن يعيشوا قناعاتهم كبهائيين أثناء حياتهم استبعد البهائيون من المجال العام، واصبحت المنازل هي المجال الخاص لممارسة صلواتهم وشعائرهم، وليس هذا سوى سجن جماعي لأقلية دينية سواء اتخذت الدولة قرارا رسميا بحظر الديانة أو لم تتخذ.

ويبدو ان هذا هو الوضع التقليدي الذي وجد البهائيون في مصر انفسهم في ظله منذ صدور القانون رقم 263 لسنة 1962 في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وأصبح علامة طبعت الوجود البهائي في العراق طيلة فترة حظر ديانتهم في العراق منذ صدور القانون رقم 105 لسنة 1970 في عهد الرئيس (أحمد حسن البكر) وحتى زمن الإطاحة بحكم نظام البعث العراقي بفعل التدخل الاميركي في عهد الرئيس صدام حسين 2003، وبالمثل طلب رجال الأمن في اليمن بعدم ممارسة البهائيين لمعتقدهم علنا، والاكتفاء بممارسته داخل المنازل في عام 2016 بعد موجة الاعتقالات الجماعية لهم. وتصل بنا نظرة واحدة على دساتير المنطقة ومؤسساتها الى نتيجة واحدة، هي: عدم وجود اعتراف رسمي بالبهائية في اية دولة عربية او اسلامية عدا أعتراف ذي

طبيعة رمزية في حكومة اقليم كردستان العراق، اذ يوجد ممثل متطوع للبهائية في وزارة الاوقاف والشؤون الدينية التابعة لحكومة الاقليم.

لكن مع تطور وسائل التواصل الإجتماعي والثورة التكنولوجية المعاصرة توسعت مساحات الظهور أمام البهائيين من خلال الفضاء الافتراضي. بالتالي يمكن الحديث عن المرحلة الثالثة من قصة البهائيين، والمتمثلة بسنوات التغيير التي أتاحت بعد الربيع العربي فرصة أمام البهائيين في أكثر من بلد عربي للإسهام في الحوار من أجل تطوير رؤية بديلة، وتعد رسالة البهائيين المصريين الى الشعب المصري وثيقة أساسية تعرض مثل هذه الرؤية بشأن مستقبل مصر ومثالاً لشعوب المنطقة، بعد ما يزيد على قرن من الوجود البهائي في مصر. وتشير الى أسهام البهائيينً في الحوار من أجل مستقبل بلادهم من منطق خبرة المجتمعات البهائية في العالم.

واذا كانت الوثيقة قد قدمت المبادئ البهائية بوصفها بوصلة يمكن أن تمارس في توجيه الرؤية ووضوحها وسط التخبط الفكري وصراع المصالح السياسية والمادية، لكنها لم تهمل الاستفادة من خبرة التاريخ، إذ تشير الى أن "العالم زاخر بالقوى ذات المصالح الذاتية التي بإمكانها أن تمنعنا من تقرير مصيرنا أو تدعونا إلى التخلي عن هذه المسؤولية طواعية" وتضيف "ثم إنّ الاستعمار والتّزمّت الديني والحُكْم التسلطي والاستبداد السافر، لعب كلٌّ دوره في الماضي"، وتنصرف الوثيقة الى نقد الجانب المظلم من الحداثة في تحذيرها من إنه "ما تزال "القوة "الألطف" للنظام الاستهلاكي وما يتبنّاه من انحطاط أخلاقي، لقادرة بالمثل على إعاقة تقدمنا بذريعة جعلنا أكثر تمتُّعاً بالحرية المنشودة". وفي هذا المنعطف التاريخي تطرح اسئلة أساسية تتمحور حول سؤال مركزي هو "هل لنا أن نتّجه نحو إقامة مجتمع فرداني ومجزأ، حيث يشعر الكل فيه بأنهم أحرار في السعي في سبيل مصالحهم حتى ولو كان ذلك على حساب الصالح العام؟."

ثم تضبط الوثيقة "بوصلة الرؤية" بتأكيدها على ضرورة بدء عمليةٍ من الحوار والتشاور حول المبادئ الموجهة لإعادة بناء المجتمع، وتصل الى اهمية صياغة مجموعةٍ متجانسةٍ من المبادئ

تنطوي على القوة الخلاّقة لتوحيده، ومن شأن ذلك بحسب الوثيقة "إطلاق طاقات بنّاءة ذاتية يعتمد عليها المستقبل من خلال حوار وطني عريض القاعدة يشترك فيه الناس على المستويات كافة ليشمل جذور المجتمع ويجتذب كلّ مواطن مهتمّ". فضلاً عن أهمية ألاّ يتحول الحوار إلى نقاشٍ عن الجزئيات والمصالح الآنيّة، أو يُختصر إلى مجرد "إبرام الصفقات وإصدار القرارت لتقاسم السُلطة من قبل نخبةٍ جديدةٍ تدّعي بأنّها الحكم الفاصل في تقرير مصيرنا ومستقبلنا."

وفي تونس الثورة أتيح للبهائيين فرص واعدة، فقد أنشاؤا لاول مرة موقعا رسميا عن البهائيين في تونس، للتعريف بالدين على نحو يبدد الصور النمطية عنه، وعلى نحو يعكس مزاج تونس ما بعد الثورة، يقترح المشاركة في حوارات سائدة المجتمع من وجهة النظر البهائية في موضوعات مثل : هويتي.. إنسانيتي، بناء مواطنة فعالة، مساواة المرأة والرجل. ويشرح لي البهائي التونسي "محمد بن موسى" رؤية البهائيين التونسيين حول التحديات التي تواجه المجتمع التونسي في ظل المرحلة الانتقالية، ودور البهائيين في مساعدة المجتمع الأوسع على أنجاز مواطنة كمخرج أساس لهذا الانتقال، بقوله "نحن نعتقد أن مجتمعاتنا لم تتعود التنوع والتعايش الإيجابي مع الآخر المختلف. فالآخر المختلف عنا في لونه أو عرقه أو دينه يخيفنا ويشكل خطرا وهميا على هويتنا. وعليه كان الشغل الشاغل للبهائيين في تونس المشاركة في الحوارات السائدة المتعلقة بالمواطنة والمساواة وترسيخ ثقافة التعايش واعتبار المواطنين أعضاء جسد واحد يحس بعضها باتراح وافراح الآخر." ويضيف "هكذا نُسهم في توسيع دائرة المواطنة الفعّالة وفي ارساء الحق في العيش والمشاركة الفعالة لجميع المواطنين في إثراء الشأن العام والفضاء الاجتماعي دونما إقصاء أو اعتبار اي علوية لدين او لون او عرق أو ايديولوجية على حساب الآخر، بل نرى في خلفية الآخر – بما فيها ديننا البهائي – رصيدا مثريا للحوارات السائدة ومصدر الهام يمكن ان نكتشف من خلاله حلولا لقضايا العصر. في هذا الصدد يتفضل حضرة بهاءالله قائلا: أَنِ اهْتَمُّوا بِمَا يَحْتَاجُهُ عَصْرُكُمْ، وَتَدَاوَلُواْ مُرَكِّزِينَ أَفْكَارَكُمْ فِي مَتَطَلَّبَاتِهِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ."

ولا شك ان التحديات التي تواجه المجتمع التونسي تحتاج الى تكاتف جميع التونسيين لمواجهة مخاطر أخرى مثل أنجذاب الشباب التونسي الى السلفية الجهادية بسبب فقدان البوصلة وانحسار الامل بتحقيق تغيير حقيقي والاحباط المتراكم وخيبة الامل. ومن ثم، فإن الانفتاح على التنوع الموجود في المجتمع التونسي وأنخراط المجتمع المدني و تمكين المجتمع من أستخدام الادوات المؤسسية للديمقراطية عاملا محفزا لمزيد من مشاركة الشباب بالشأن العام، سوف يرسم علامة مشجعة.

في هذا السياق، كان للبهائيين دور في المشاركة في كتابة الدستور تحت قبة البرلمان التونسي كجزء من المجتمع المدني، وأدلى البهائيون بوجهة نظرهم في المواطنة والتعايش والحريات. كما دعي البهائيين مرات عدة في رحاب الجامعات والمنتديات والقنوات التلفازية والإذاعية لتقديم مداخلات ومحاضرات. لكن، هذه الومضات الأيجابية يحبطها سيادة القوالب النمطية ضد البهائيين، والاحكام المسبقة، ويحددها درجة الانفتاح بعد الثورة، التي لم تصل الى مرحلة يمكن الحديث فيها عن قبول للأخر الداخلي، أو احتواء المخاوف الجماعية اللامعقولة، فقد تقدم البهائيون من أجل مزيد من الانخراط في جهود المجتمع المدني سالفة الذكر من خلال جمعية تحمل أسم "الجمعية البهائية في تونس" لكن جوبه مطلبهم بالرفض كما يبيّن "بن موسى"، فمن وجهة نظر الخطاب الرسمي للحكومة التونسية يُعد البهائيون دينا غير سماوي، لذا رفع اعضاء الجمعية قضية للمحكمة الادارية للطعن في قرار رئاسة الحكومة بالرفض، وما تزال القضية في طور التقاضي. . وعلى ما يبدو فإن دائرة القبول الرسمي في تونس تحددها السياسة الحصرية لحرية الدين والمعتقد، التي ما يزال البهائيون يواجهون تبعاتها في ايران والعراق ومصر واليمن ودول شرق أوسطية أخرى. لذا، تضع قضية عدم الاعتراف بالبهائيين مخرجات عملية الانتقال نحو الديمقراطية في تونس تحت المحك ايضا.

وبسبب "وضع الاقلية في الظل" وسيادة المقاربة الأمنية التي تنطلق من كون التنوع تهديد لوحدة الدولة او النظام، وهذه أحدى محددات ومهيمنات خطاب دولة ما بعد الاستقلال من الاستعمار

في الشرق الاوسط وشمال افريقيا، لن تتجاوز معرفة البهائيين حلقات النخب الضيقة، وستظل قطاعات واسعة من المجتمع في تونس، كما في بلدان أخرى مجاوره تعتقد أنه لا وجود لأي تنوع في البلاد. وحتى لو كانت الفرصة التي شهدتها تونس بعد الثورة تتيح أمكانيات لبناء نموذج مواطنة جديد منفتح على التنوع، أو مواطنة حاضنة للتنوع، إلا ان مخاطر الألغاء وبروز نزعات العنصرية والجهوية والعداء للآخر المختلف دينياً وعرقيا تظل تحديا راهنا يصعب تجاوزه، ما لم يتم توسيع نطاق مفهوم حرية الدين والمعتقد وكسر الدائرة الحصرية لقبول الأخر، والمحددة ضمن معتقدات وأديان وثقافات معينة.

هذه مهمة نبيلة تتطلب العمل الجاد المشترك وارادة سياسية تتسم بالشجاعة من أجل التغيير، مهمة تقع على عاتق النخب الدينية والمدنية، النساء والرجال الأحرار في جميع بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ويلخص "بن موسى" هذا السعي بقوله "علينا أن نبذل جهداً أكبر لتكريس التعايش، في ظل الهويات المتناحرة وإيجاد نقطة مشتركة لنا جميعاً كمسلمين وبهائيين، عرب وأمازيغ، سُنَّة وشيعة، من أجل هذه البلاد."

تتبدى القيم التي يدافع عنها البهائيون كقيم لازمة للحفاظ على تنوع الشرق الاوسط اليوم، وسط التهديد بتفكك الدولة بعد عقود من تغولها في كل من العراق وسوريا، وصولا الى سيادة الفوضى وانهيار مؤسسات الدولة في اليمن، وتحديات عدم الاستقرار في مصر، وفشل الدولة في أدارة التنوع في بلدان أخرى يعيش فيها البهائيون منذ عقود ما قبل الاستقلال عن الاستعمار وتأسيس الدولة الوطنية.

بعد مئتي عام على ولادته، يحتفل العالم بالرؤية البديلة التي قدمها "بهاء الله" عن السلام والروحانية المتسامحة، والتعاون العالمي، وحقوق الإنسان، وتمجيد العقل والعلم، والحكم البرلماني، والمساواة بين المرأة والرجل، وتنمية إمكانات المجتمعات والأشخاص في جميع أنحاء العالم. ويبقى تفضيل "بهاء الله" إنشاء اتحاد الأمم كوسيلة للقضاء على الحروب والنزاعات، فضلاً عن إنشاء لغة

عالمية واحدة، مشتركاً نضالياً للمدافعين عن مواطنة عالمية ومصير مشترك للإنسانية. لم تعد هذه رؤية يوتوبية، بل خيار واقعي يمكن لنا جميعاً العمل من أجل تحقيقه في الشرق الأوسط.

كلمة ختامية

التقت نحوي "كينيث باورز" سكرتير الجامعة البهائية في الولايات المتحدة، بعد ان سألته عن جذور عائلته، وبدأ بسرد مشوق عن انحداره من عائلة أميركية من الواسب WASP (ابيض بروتستانتي أنجلو–سكسوني) .White Anglo–Saxon Protestant ، كانت عائلته تحمل ميراثا من تجارة وملكية العبيد، اعتنقت البهائية منذ قرن، وسرعان ما تغيرت تقاليدها وثقافتها تجاه قضية المساواة بين البيض والسود منذ ذلك الوقت. في هذا السياق المناهض للتمييز العنصري ارتبط انتشار البهائية في الولايات المتحدة، وابرز تعبير عنه ان من بين اوائل الزيجات التي جمعت رجلا اسود البشرة بامرأة بيضاء في التاريخ الأميركي الحديث كان أطرافها من بين البهائيين.

يحدثني "باورز" عن صعوبة تطبيق فكرة المساواة ومناهضة التمييز حتى في محيط ما بعد حداثي مثل المجتمع الأميركي، فقد كانت اجتماعات البهائيين من كافة الأعراق في ستينات القرن الماضي تتلقى هجمات منتظمة من جماعة كو كلوكس كلان (Ku Klux Klan) التي تؤمن بالتفوق الأبيض ومعاداة السامية والعنصرية ومعاداة الكاثوليكية.

كنت من المحظوظين القلائل ان اكًون برفقة "باورز" وهو يشرح تاريخ بناء اول معبد بهائي في الولايات المتحدة(مشرق أذكار ويلمت في شيكاغو والذي يقع على بحيرة متشيغن). كنت أراقب شغف زميلي المعماري التونسي "محمد بن موسى" في تلك اللحظات الفريدة التي رأينا فيها حجر الاساس الذي وضعه "عبد البهاء" في عام ١٩١٢ لهذا المبنى المدهش. لا سيما بعد ان قرأت عنه وعن زيارة "عبد البهاء" الشهيرة للولايات المتحدة في كتاب "القرن البديع" لشوقي أفندي،

واللقاء المثير الذي جمعه بجبران خليل جبران في نيويورك(لقاء السحاب)، وكان من نتائجه تأثر جبران بشخصية "عبد البهاء" على نحو برز في مؤلفه "يسوع ابن الانسان."

تتفق فكرة "مشرق الاذكار" مع مبدأين من مبادىء الدين البهائي هما : وحدة الأديان ووحدة الجنس البشري، ويتكون البناء من تسعة أضلاع تحمل قبة هائلة كرمز للتعبير عن وحدة الجنس البشري ووحدة الأديان تحت مظلة إله واحد.

وانا ادخل البناء البديع جذبتني عبارة لمؤسس الدين البهائي توحي بهوية الدين العالمية "ما الأرض إلا وطن واحد والبشر سكانه." استغرق تصميم المبنى ثمان سنوات من المعمارى الفرنسى والكندي الجنسية "لويس برجواه". وفي وصفه للبناء يقول "تحتوى الأبراج على زخارف متشابكة لرموز جميع الأديان ، دليلا" ومثالا" للزائر من اى ديانة على الأخوة العالمية التى يرمز اليها مشرق الأذكار ". وبذلك يعد البناء على صعيد رمزي عودة الى بيت عبادة مفتوح للجنس البشري بكل مؤمنيه وأديانه، ويدعو من خلال طرازه المعماري الرفيع للاتحاد والوحدة على نحو تعبر عنه عبارة "كلكم أثمار شجرة واحدة وأوراق غصن واحد."

يتكون البناء من زخرفة دقيقة مشعة بالضياء، وقد تم ابتكار عملية خاصة لصب الأسمنت الأبيض المخلوط بحبيبات الكوارتز فى قوالب معينة لتشكيل تلك الزخارف المشابه للدانتيلا . وبعد ذلك تم تثبيتها فى اماكنها المخصصة لتكوين الطبقة الخارجية للمبنى. كانت الرؤى التي تتجمع بقوة الضعفاء من أقليات الشرق الأوسط تحاول ان تصنع هندسة مماثلة تبين انخراط جميع سكانه، على اختلاف أديانهم، في البحث عن خلاص، وعن تحقيق دولة المواطنة الباعثة للتنوع. فعلى الرغم من الإبادة الجماعية التي تعرض لها ، أثبت المجتمع الإيزيدي حيويته من خلال تبدلات بُنيته الاجتماعية الدينية، مثل: قرار المؤسسة الروحية الإيزيدية متمثلة بـ(بابا شيخ) استقبال الناجيات الإيزيديات على نحو يخالف تقاليد مجتمعات الشرق الأوسط المحافِظة، وقصص الحب والبطولة التي أثبتها شبان أيزيديون تَقدموا للزواج بالناجيات حالما تم تحريرهن من براثن داعش،

وأخيرا فوز الناجية الشابة "نادية مراد" بجائزة نوبل للسلام بعد تحولها إلى متحدثة بالقضية الأيزيدية على نحو فاق المؤسسات التقليدية الدينية والأجتماعية، وتجاوَزها بأشواط.

من جهة ثانية، فإن عودة الزرادشتية الى الوجود في كردستان العراق واعلان الكاكائية عن هويتهم الدينية وإنبعاث الهوية الأفريقية في أكثر من بلد شرق أوسطي أصبحت جميعها، علامة على قوى التاريخ التي طالما تم كبتها ونسيانها.

وفي سياق الاستعادات أثبت احياء ذكرى الإبادة الارمنية إن العدالة حتى لو وصلت متأخرة فهي كفيلة بإنصاف ذرّية الضحايا، والتمهيد لعقد مصالحة لازمة للمضي في درب السلام الصعب. كما إن التزام البهائيين بالقيم والمعتقدات التي آمنوا بها وانخراطهم في النقاش العام، بالرغم من صنوف الاضطهاد التي تعرضوا لها طوال عقود، يبين ان الأقليات تمثل خميرة التغيير، وإن قوة الضعفاء تسهم في تصور بديل مناسب، أو خيار ثالث بين القومية والاسلام السياسي، يمكن ان نطلق على هذا البديل تسمية المواطنة الباعثة للتنوع الثقافي.